الحب الجرىء

بقلم الاستاذ عبد الرزاق العائش

ليؤثر الخشونة على الترف ،

ماطله ولما كان مظهره وهندامه ينافيان مركزيه المادي والأدبي ـ كشاب مثقف يمثل مركزاً مرموقاً في دائرة غربية راقية . . يتقاضى مرتباً يسمح له بأن يتذوق بعض لذاذات الحيـــاة ـ كلا ! ما كان يصعد الى التقشف مع وفرة اسباب النعيم .. لو لم تكن هناك غاية تمركزت في خاطره فوق كل غايه .

كانت غايتـه الزواج من وفاء . (وفاء) الفتاة المثالية الجميلة ، تلك الغاية هي التي صيرت كل غايات الوجود تافهة ـ في نظره ـ إلاها ..

والحق انها لغـاية نبيلة جـديرة بالتقدير كما تتوفر مهيئآتها . وخصوصاً المال ؛ المال الذي هو عصب الحياة في كل زمان ، ومكان ، فلا بدع اذا ما فكر (كامل) بأي وسيله مشروعة للحصول عليه ولما لم يكن التقتير وحده كافياً لنيل تلك الغاية اخـذ يفكر في جمع المال عن طرق اخرى ؛ فهداه تفكيره الى ان يستأجر حانوتاً في مكان بارز فيتخذه مكتباً يزاول فيه الترجمة وكتابة العرائض واللوائح (بعـد اوقات الدوام) اذ كان هو الوحيد في تلك البلدة يحسن عدة لغات آنذاك .

وهكذا استطاع ان يوفر من المال ما يمهد له سبيل الوصول الى غايته خلال مدة قصيرة وكنت اثناء تلك المدة مواظباً على مساعدته حد امكاني ، كصديق حميم منذ عهد الطفولة . حتى ذات يوم جريا على العادة فوجدت باب المكتب مغلقاً فاستغربت ذلك ولم ابث ان في مجيئه ذهبت الى داره لاسأل عنه فاده شني ما رأيت !! اذ استقباني بدموع حارة غزيرة وحسرات وزفرات يرثي لها الجماد وهو يتمتم بكلمات لم اكد افهمها ؛ لاول وهلة ؛ فلم املك نفسي دون ان ابكيت شفقة عليه ، وطفقت احاول تخفيف آلامه ، ولكن أي كلمات تخفف عنه هذا المصاب الفادح !؟ نشأت وفاء في بيئة عربية وعريقة في المدنية والحضارة تلك هي بيئة (ن) التي واكبتها السعادة في حلها وترحالها ، وحالفتها في جميع ادوارها ، حتى خدمت المجتمع خدمة جليلة بمشاربها الزراعية والعمرانية وكان لها قسط وافر في محاربة الادواء الاجتماعيـة المتوطنة في محيطها .

وفتاة تشب وتترعرع في بيئة (تنشيء الحياة وتبني) لجـديرة بأن تنال من الحضارة نصيبهـــا ، وناموس الحضارة ـ أينما وجد ـ يقضي بأن تتمتع المرأة بكامل حقوقها الشرعية بصفتها عضواً عاملاً في بناء الجامعة البشرية لها كما للرجل وعليها كما عليه حقوق وواجبات فلما وقعت (وفاء) ـ في شرك الحب ـ كأي فتاة تجد ضالتها المنشودة ـ ظنت ان الخروج منه سهل هين ، وان لا مانع من تحقيق امنيتها ، والذي قاد ظنها الى ساحة اليقين هو ـــ ان صفيه (والدتها) اتخذت ماجداً (والدها) شريكا لحياتها عن طريق الحب لاغير ، مع وجود من هو اولى بها منه ؛ من بني عمومتها واقربائها بدافع هذا الظن المسوق بسياط الغرور ونزوات الصبا

يقدم الاستاذ العائش في هذه القصة الممتعة (مسابقة ادبية) يدعو بها اقلام الكتاب الى النشاط والحركة ، وقد تفضل بهذه الجوائز الثلاثة الاتية للفائزين .

والبيان لايسعها إلا ان تشكر الاستاذ العائش على هذه اللفتة المحمودة وتتمنى له الموفقية في خدمة الأدب الصحيح .

الجائزة الاولى : اشتراك سنتين في مجلة البيان .

الجائزة الثانية : البيان والتبيين للجاحظ [ثلاثة اجزاء]

الجائزة الثالثة : معجم ادباء الاطباء للاستاذ محمد الخليلي (جزءان)

شروط المسابقة

١ ـ يجب ان لا تتجاوز الاجوبة عموداً واحداً من صفحة البيان

٢ ـ تنتهي مدة المسابقة في العدد سنتين من البيان

٣ ـ تختار ادارة البيان لجنة من اعلام الادب في العراق لاختيار اجود الأجوبة ، وستعلن اسماءهم في حينه .

التحرير

تقدمت (وفاء) الى امها بخطى ثابتة وصرحت لها بما تعانيه من لواعج الحب وتباريحه ؛ حب (كامل) الذي استولى على عرش ارادتها فصير شعورها واحساسها رهن اشارته ؛ ثم اشفعت تصريحها بحق البنوة ودموع الدلال ، اللذين هما لدى الام الرءوم خير شفيع ، فما كان من الام الحنون الا ان واعدتها خيراً ، وطمنت نفسها بقبلة الامومة الحالمة ، اذ طبعتها على جبينها المشرق بنور الامل .

عزمت (صفية) على التقدم الى [ماجد] لتشكو له حال وحيدتها الغالية وتحثه على تحقيق رغبتها بالسرعة الممكنة وحدثتها نفسها بأن اذا ماطلها بالتعليل والتسويف تعرض عليه صورة الماضي الجميل ؛ ايام جرى الحب بقلبيهما مجرى الروح بالبدن ..

استحضرت هذا وامثاله من احلام الهوى والشباب ؛ ولكن غاب عنها ان الحب الذي ليس حبه الا عاطفة مشبوبة بنار البهيمية السريعة الخمود ؛ انى له التعرف على الحب الحقيقي فضلا عن الاعتراف بحقوقه ؟

وهكذا كان (ماجد) فما كادت المسكينة تبلغه بعض رسالتها حتى عصفت به ريح الغيرة العاتية ، وهاج كالبحر الطامي وراح يفسر الحب ومن ينتمي اليه بسيل من الالفاظ البذيئة . وعبثاً حاولت ـ المخدوعة ـ اقناعه بان للحب عليه ديناً وقد استحق اليوم وفاءه ، فقد انشأه الجبة ... حمية الجاهلية عهد صبوته وعنفوان شبابه واستحالت نجوى الحب ومسامرات الغرام وعيداً وتهديداً بقتلها ان هي عاودته في هذا الموضوع .

لاريب في ان مثل هذه الصدمة النفسية توغر صدر المرأة .. المرأة السليمة القلب التي لم يدر في خلدها ان الحب جريمة لا تغتفر .

لقد جرحت هذه الاهانة شعور صفية جرحا بالغ الاثر لكنها تحملتها على مضض وراحت تجر اذيال الخيبة والدمع معا وانبرت تحذر ابنتها من التمادي في بحر الهوى ، وإلا ستجنح حتما الى شاطئ الندامة ، حيث النهاية الدامية . غير ان « ديكتاتور الحب » استبد في رأيه واصر على التشبث بامله الضعيف المحطم على صخرة الواقع .

عندئذ انشبت الهواجس في مخيلة (ماجد) اظفارها وراحت تجره الى سورة الظنون السيئة ، فضرب على حب ابنته سياجا من الكتمان كيلا يتسرب الى اكثر من ذلك ، وراح هو يبحث في طيّ الخفاء عن مدى توغل هذا « الحب الجري » في حدود شرفه وشرف اسماره آل [ن] الامجاد . ولم تركد ريحه ولا ركن الى الطمأنينة والهدوء حتى تحقق لديه ان حدود الشرف لم توطأ قط .

عندئذ هدأت ثائرته واطمأنت نفسه ، ولكنه في الوقت ذاته صمم على ان يوثق هذا الحب بوثاق شديد لايقوى على حله مهاجد واجتهد .

بعث خليف ابن اخيه [احمد] من يخبره بما قر عليه رأيه ، فحضر ـ وافر الحظ ـ واحضر معه القاضي والشهود وبين عشية وضحاها تم عقد احمد على وفاء قمراً .

كان احمد عدو كامل اللدود وطالما يتحين الفرصة لهلاكه ، وقد واتته الظروف بهذه الضربة القاضية ، في حين لم يكن في مقدور الفتاة ان تتخلص او تتهرب من هذا الزواج القهري .. وهذا ما اجرى دموع كامل حين مقابلتي اياه ، تلك الدموع الحارة الغزيرة .

مرت الايام سراعا ، وتزوجت الفتاة ، وعاد صديقي الى عمله .. لكن بأي حال كنت اراه يجلس في مكتبه الصغير !! وكيف يعمد الى عمله ؟ فقد تهدم كل امله في الحب والزواج بعد اعلان هذه الخيبة المريرة . انتهى الامر بأن لبس حداداً عليها الملابس السوداء ، وعاهد نفسه ان لايتزوج طول حياته ، ليظل قلبه هيكلا مقدساً لعبادتها .. هذا وانا لم ابرح عن رعايته بعطفي تارة ؛ وتارة بنصحي وارشادي كما سنحت لي الفرصة .

في ذات يوم قلت له : ان موضوع غرامك يصلح اساسا لقصة فذة شائقة على أن اشهد ستاره الاخير في الحقيقة لا ان يتدخل الخيال في النهاية .

قال « وهو يغالب عبرته » : من يدري ؛ دع القلم في جيبك الآن ولا تتعجل الحوادث ..! اما اذا شئت ان افصح لك عن شعوري ، بل ومستقبل حبي ، ففي استطاعتي ان اؤكد لك باغلظ الايمان ، ولن تهدمه الايام مهما صارعتني او غالبتني ؛

قلت : وما عساك ان تقول . ؟

قال : اؤكد لك انني لن احب مرة اخرى ، ولن اتزوج - من سواها - مادمت حيا .

قلت [وانا اربت على كتفه] : لقد علمنا اختبارات الحياة ، وما قرأناه من احاديث وقصص في الكتب .. ان لا مستحيل في الوجود ، وان القلب ليس رهين الارادة مهما كانت قوية فولاذية .

ابتسامة المرأة المغرية اذلت رؤوس العظماء من قبلك ، ونظرة واحدة سريعة الى مواقف الرجل والمرأة منذ الخليقة ؛ منذ آدم الى يومنا هذا تريك ما يدهشك .

وهل انت في حاجة لان اذكرك بالحوادث التاريخية التي كانت منها رؤوس الجبابرة كرات صغيرة تلهو بها النساء وتقذفها كيف تشاء ؟

قال [وهو يضغط على يدي] : شعرت انني كرجل بالغريزة ، قد اضعف امام سلطان المرأة اذا اعترضتني فاقسمت يجب ان اتجنبها بصوره باتة ، وان لا احاول الاحتكاك بها اني تكون ، وحيث تكون مؤهلاتها للحب .

***

كل كلمات السلوى نفذت دون ان تفيده بشيء ، فلا هو يفكر في حب جديد ولا هو يريد ان يتزوج . فكأن الأيام لم تكن الا لتزيده حباً فيها ، وتشبثاً بها ، متمسكاً بقوله : [اخذت نصيبي في الحب وكفى !!]

وهكذا استمر يغمر روضة امله المحلة بفيض من دموعه ، ويثير تربتها القاحلة بزفراته وحنينه ، حتى رق له القدر القاهر ورثى لحاله ، اذ بعث فيها الحياة من جديد [فسبحان الذي يحي العظام وهي رميم]

لقد صمدت « وفاء » للدفاع عن حياض الحب والطهارة صمود الحر الأبي للدفاع عن كرامته ، فلم تمكن الغاصب - الشرعي - من بلوغها ، على الرغم من هجماته العنيفة المتواصلة فيا له من دفاع ما اروعه !! دفاع حب ضعيف اسير مقيد ضد عاطفة جبارة حرة طليقة !

استمر هـــذا الدفاع ؛ زهاء سنتين ذاق خلالها الحب اقسى تجربة في حياته ، حتى ضـــرب الرقم القياسي على قوة الارادة والوفاء في آن واحد . ولما خارت قواه وكاد يشرف على الاستسلام تدخل القدر القاهر في حسم النزاع (تدخل قاض متحيز) اذ وجـه الى العاطفة طعنة نجلاء اضطرتها الى الكف عن الهجوم .

كانت تلك الطعنة موت ماجد ؛ ذلك الجبار العنيد الذي ظالما نفسه واذعى - بعد بلوغ مأربه - ان الحب داء ويل يجب القضاء عليه دون شفقة او رحمة .

مات ماجد ، وبموته انقطع امل احمد في وفاء كربة منزل تدبرته بعض شؤونه ، فضلا عن انها تخضع لارادته كشريكة لحياته تشاطره آلامه وآماله . فالرجل الوحيـد الذي كانت تخشاه هو - هذا الذي وارته يدا احمد في التراب .

***

مات ماجد ، وعلى موته انطبق قول القائل : « مصائب قوم عند قوم فوائد » فهذا كامل الذي ذوى عود رجائـه في حبيبته وجف لحاؤه من امد غير قريب ؛ يدخل اليوم ضمن الداخلين دار المرحوم « ماجد » ليعزي الاسرة « الكريمة » بفقيدها (الغالي) فكان [عزاء ؛ فعتاب ، فموعـد ، فلقاء] ومن ثم راح يسعى الى تحقيق غايتـه بخطى واسعة ؛ فعمد - قبل كل شيء - الى زناد الغيظ الكامن في صدر صفية فاوراه وراح يثب ضرآمه في كيان صهرها - الاسمي - بينما راحت « وفاء » بدورها ترفع راية الحب على هيكل الطهارة في رائعة النهار دون ان تخشى واشياً او رقيباً .

بيد ان هناك عقبات جمة تعترض طريقها ، واهمها - عدا عقبة الزوج - مناوأة صادق (والد كامل) لهذا الحب الشاذ اذ كان موقفه بازائه سلبياً ؛ كما وانه صرح اكثر من مرة بما معناه (ان الفتاة التي تحدثها نفسها بالزواج عن طريق الحب او الاختيار ما هي الا جرثومة فتاكـة تنخر جسم المجتمع وتعيث فساداً بمقدساته)

اذن ! كيف يسوغ لكامل — وهو الولد البار الذي لم نحدثه نفسه في يوم ما ان يعصي لوالده امراً — كيف يسوغ له ان يتزوج من هذه الفتاة ؟